البرق والبريد والهاتف[١]

منشأ البرق «التلغراف»

لم يكن إلى الربع الأخير من الحكم التركي بالشام برق ولا بريد ولا هاتف منظم. وضع نظام البرق في ٢٧ ربيع الأول سنة ١٢٧٦هـ، ونظام البريد في ٢٦ المحرم سنة ١٢٨٦هـ وكان يتبادل بريد الحكومة على عهد الحكومات السابقة بواسطة السعاة والنجابين أو بواسطة حمام الزاجل. وتستعمل إشارات الضياء (الفوانيس) إبان الحروب عوضًا عن الإشارات البرقية السلكية واللاسلكية والهوليسته المستعملة الآن، واصطلح على استعمال كلمة برق عوضًا عن كلمة تلغراف اليونانية المركبة من كلمتين تل-غراف، والأولى بمعنى بعيد والثانية الكتابة؛ أي الكتابة عن بعد، منذ نحو ستين سنة، واستعملت كلمة الهاتف على عهد الحكومة العربية عوضًا عن كلمة تلفون اليونانية المركبة من تل وفون؛ أي الصدى البعيد.

وللبرق ثلاثة فصول: الشبكة والآلات والأدوات المستعملة وشكل الإدارة والمخابرة، واقتصرت شبكة البرق بدمشق على العهد التركي، حتى سنة ١٨٩٩ على الأسلاك الممتدة منها شمالًا إلى حلب وجنوبًا إلى القنيطرة، الصلت، حوران، وشرقًا دومة، وغربًا بيروت، حاصبيا، ثم توسعت هذه الشبكة في سنة ١٩٠٠ بتمديد الخط البرقي الحجازي من الصلت حتى المدينة المنورة، وامتد فرع منه بين معان والعقبة. وللسلك البرقي الحجازي عمود تذكاري ركز في ساحة الشهداء بدمشق.

---

(١) أخذت معلومات هذا الفصل من إدارة البريد والبرق في دمشق.

وتفرع من السلك الشمالي فرع امتد بين حمص، طرابلس وحمص، بعلبك وحماة، سلمية وحماة، العمرانية ومن السلك الجنوبي إلى جبل الدروز وبصرى، وعلى أثر جلاء الجيش التركي ودخول جيش الحلفاء أواخر سنة ١٩١٨ خربت هذه الشبكة ثم أعيد إنشاؤها على عهد الحكومة العربية إلى ما كانت عليه قبلًا حتى انسلاخ فلسطين وشرقي الأردن وجبل الدروز عن جسم الشام. وظلت هذه الشبكة البرقية بطول ١٥٧١ كيلو مترًا.

وقد أنشأت الحكومة التركية أثناء الحرب العامة المخابرات اللاسلكية بدمشق وحلب، واستعملت الإشارات الضيائية والبصرية بالأعلام والسواعد ضمن قطعات الجيش فقط.

الآلات والأدوات والمخابرة

كانت الآلات والأدوات البرقية المستعملة على العهد التركي حتى سنة ١٣٠٥هـ-١٨٨٩م منحصرة في نوع سميس ومورس الأوربي، ثم عدلت هذه الأدوات في مصنع البرق الذي أُحدث في نظارة البريد والبرق في الأستانة بشكل جمع بين النوعين المذكورين بجعل إبرة الكاتبة بآلة الأخذ للمفاوضات البرقية أن تنقش الإشارات الرمزية .. (--.. .-...- - - .) على شريط الورق بصورة ناشفة بدلًا من نقشها بالحبر كالآلات السابقة، ثم ألغت النظارة استعمال الأبرة والسلك على أثر ترقي الموظفين بتلقي نقرات المخابرة سماعًا، وأصبحت الآلات المذكورة من نوع البارلور الذي هو عبارة عن الآلة الآخذة، وقد اقتصدت الإدارة بوجود أقسام الكتابة ثلاثة أضعاف ما كانت تكلفها قبلًا. واستمر الحال على استعمال هاته الآلة حتى نشوب الحرب العامة، فأحدثت الماكنات المضاعفة (دوبلكس) الألمانية والإنكليزية التي سهلت المخابرة أخذًا

وردًّا في آن واحد على خط واحد كإحداثها ماكنات الهوك المفردة والمضاعفة التي تنقل المخابرات البرقية على السلك الورقي حروفًا هجائية أخذًا وردًّا.

وكانت المفاوضات البرقية على العهد التركي حتى سنة ١٩٠٠ في أكثر المراكز تنحصر باللغتين الشرقيتين التركية والعربية، ولا تتعدى الأرض العثمانية عدا بضعة مراكز كدمشق وبيروت وما يماثلها من مراكز الولايات، وبعد ذلك أُحدثت المفاوضات الغربية بين المراكز العثمانية وأوربا.

إحداث الهاتف

أُحدث الهاتف في الشام بعد إعلان القانون الأساسي في تركيا خلال ٣٢٤/٩٠٨ كان منحصرًا بالدوائر الرسمية الرئيسية الملكية والعسكرية، ورخص بتمديد الأسلاك الخصوصية في مسكن كل مشترك وحانوته أو مشترك آخر في بلدة واحدة تحت إشراف ديوان البرق الملكية. واستمرت هذه الشبكة الهاتفية بشكلها حتى نشوب الحرب العامة، فألغيت منها الأسلاك الخاصة وانحصرت بالأسلاك الرسمية التي تجاوزت نفس دمشق وتوسعت إلى مناطق الجيوش ومواقع الحرب حتى إذا انجلت الحكومة العثمانية عن القطر ودخل الجيش المحتل استلمها وأسس على أنقاضها شبكة خاصة عسكرية ومدها إلى مناطق الانتداب الرئيسية كدمشق وحمص وحماة وحلب والإسكندرونة... إلخ. وسمح للسكان والتجار بالاشتراك والارتباط والتخاطب بها مقابل أجور مقطوعة على كل ثلاث دقائق تمر أثناء المخابرة. وارتبطت الحكومات الوطنية في كل من هاته البلدان بدوائرها المركزية هاتفيًّا واستقلت الدرك بشبكة خاصة مع مخافرها.

أمَّا الهاتف اللاسلكي الرسمي فانحصر بإدارة الراديو العسكري أخذًا وردًّا، والهاتف اللاسلكي التجاري سمح به في قسم الأخذ منه تحت إشراف إدارة البريد والبرق دون استعمال آلة الرد؛ أي الإصدار.

منشأ البريد

البريد كلمة فارسية مختصرة من كلمتي بريد ذنب؛ أي مقطوع الذنب. والسبب بهذا الاصطلاح غير المأنوس هو أن الفرس كانوا يقطعون أذناب الحيوانات التي تنقل بريد الحكومة تمييزًا لها عن بقية الحيوانات التي تستخدمها لركوب الدرك والجباة، فحذفت العرب كلمة الذنب واقتصرت على كلمة البريد والجمع منها برد. ولم يكن قبل القرن السابع عشر أثر للبريد على ما ورد في مجموعة البرق والبريد التركية.

كان شكل البريد وسيره وإدارته ونقله حتى تاريخ تمديد السكة الحديدية المصادف لسنة ١٣٠٧هـ-١٨٩١م بين بيروت ودمشق-المزيريب تنحصر حتى بيروت بمركبات شركة الحوافل الملغاة. أما باقي الجهات فكانت شمالًا حتى حلب فالأستانة تسافر برًّا مع التاتار؛ أي مع سعاة البريد الموظفين ينقلونه على ظهور الخيل، وشرقًا بين دمشق والعراق-بغداد على ظهر الهجن (الذلول)، وجنوبًا بواسطة السعاة المأجورين، وبحرًا بواسطة بيروت وهو عبارة عن تبادل الكتب والصحف والملفات والنماذج والصرر ذات القيمة مع الأرض العثمانية وعلى الكتب والصحف والملفات مع الممالك الأجنبية.

وقد بدأ شكل سير البريد يتطور نقلًا وإدارة ومعاملة من سنة ١٣١٦-١٩٠٠ فألغيت سعاة التاتار سنة ١٩٠٢ بين دمشق وحماة وسنة ١٩٠٥ بين حماة وحلب، وسنة ١٣٣١-١٩١٥ من حلب وأذنة فقونية. وأصبح نقل البريد حتى الأستانة برًّا بالسكة الحديدية التي أُنشئت شمالًا كما أنها

أحدثت نقليات البريد حتى الحجاز؛ أي المدينة المنورة بالسكة الحجازية التي كان بدئ بإنشائها سنة ١٩٠١-١٣١٧ وانتهت بسنة ١٩٠٨-١٣٢٤. وتبدلت نقليات البريد تدريجيًا في الأصقاع الشامية من الحيوانات إلى متن السيارات. وأما فيما له شأن بالمعاملات فقد أحدثت على التدريج واعتبارًا من سنة ١٩٠٠ أُنشئت الحوالات البريدية فالبرقية والطرود العادية فالمشروطة التأدية والرسائل ذات القيمة المقدرة بين الممالك العثمانية والشام. وفي سنة ١٩٠٢ بدأت هذه المعاملات الجديدة مع الممالك الأجنبية في أوربا وآسيا وإفريقية. ودامت على هذا التوسع التدريجي حتى نشوب الحرب العامة فانقطعت عندئذ مع الدول المعادية لتركيا، واقتصرت على الممالك المتفقة معها إلى أن جلت الدولة عن الشام وانقطعت المواصلات البريدية أثناء احتلال دول الانتداب أرض الشام، ثم عادت المواصلات إلى سيرها السابق. هذا عدا انقطاع السكة الحجازية الذي لم تصل بين الشام والحجاز؛ أي المدينة المنورة بعد الاحتلال البريطاني لفلسطين وشرقي الأردن الخارج عن حدود الدولة السورية.

مراكز البريد والبرق في الشام

دمشق مركز البريد، دمشق باب توما، دمشق الميدان، عفرين، حلب، أعزاز، الباب، بصرى، دير الزور، درعا، جرابلس، جسر الشغور، دومة، أريحا، أزرع، حماة، حارم، حمص، خربة الغزالة، إدلب، قطنا، القنيطرة، القطيفة، معرة النعمان، منبج، النبك، عمر آغا، الرقة، سلمية، السويداء، يبرود، الزبداني، الإسكندرونة، أنطاكية، آرسوز، بيلان، قريق خان، الريحانية، السويدية، كسب، بلودان.

هذا في دولة سورية، وهذه مراكز البريد في لبنان:

بيروت، جديدة المتن، جونية، جبيل، البترون، أنفة، طرابلس، زغرتا، عكار، غزير، أميون، بشرّي، الدامور، صيدا، صور، تبنين، بنت جبيل، جزين، النبطية، مرجعيون، حاصبيا، بعبدا، عاليه، دير القمر، بعقلين، بيت مري، برمانا، بكفيا، بيت شباب، الشوير، بسكنتا، بحمدون، صوفر، حمانا، زحلة، رياق، بعلبك، الهرمل، جب جنين، مشغرة، حصرون، أهدن، دومة لبنان، حدث الجبة، عين زحلتا، سوق الغرب، سير، قرطبا، الشويفات.

وهذه أسماء مراكز البريد في بلاد العلويين:

بانياس، جبلة، القدموس، القرداحة، اللاذقية، المشتى، العمرانية (مصياف)، أرواد، صافيتا، صهيون، طرطوس، تل كلخ.

وإليك أسماء مراكز البريد والبرق في فلسطين:

عكا، العفولة، بئر السبع، بَيْسان، غزة، حيفا، يافا، جينين، القدس، لدّ، المجدل، نابلس، ملبس، الرملة، ديران، سمخ، صرفند، تل أبيب، طور كرم، زمارين.

وقد أصبحت فلسطين في عهد الانتداب الإنكليزي مربوطة كلها حتى قراها بشبكة من سلك الهاتف، فنازع الهاتف البرق في هذا القسم الجنوبي من أرض الشام وأصبحت المواصلات فيه سريعة للغاية.

وهذه جريدة أسماء مراكز البرق والبريد في شرقي الأردن:

إربد، أم قيس، دير أبو سعيد، الحصن، الرمتا، الزرقا، الصلت، الطفيلة، عجلون، عمان، القطرانة، الكرك، مادبا، معان، جرش.

أمّا مراكز البرق خاصة في ولايات الانتداب الإفرنسي في الشام فهي كما يلي:

(سورية): حلب، الإسكندرونة، أنطاكية، آرسور، اعزاز، الباب، بيلان، بلودان، بصرى، دمشق، دير الزور، درعا، جرابلس، جيرود، جسر الشغور، دومة، ريحا، ازرع، حماة، حارم، حسيه، خربة الغزالة، حمص، إدلب، قطنا، قرق خان، القنيطرة، القطيفة، معرة النعمان، معبطلي، منبج، النبك، عمر آغا، الرقة، الريحانية، سلمية، السويداء، السويدية، الزبداني، يبرود.

(لبنان): عكار، عاليه، أميون، بعبدا، بعقلين، بعلبك، البترون، بشرّي، بيت شباب، بيت مري، بيروت، بحمدون، بحنس، بنت جبيل، بسكنتا، بكفيا، برمانا، الدامور، دير القمر، ظهور الشوير، جزين، جب جنين، جبيل، جونية، اهدن، أنفة، غزير، حمانا، حاصبيا، حصرون، الهرمل، قب إلياس، مشغرة، مرجعيون، النبطية، راشيا، رياق، صيدا، صوفر، تبنين، طرابلس، ميناء طرابلس، صور، زحلة، زغرتا.

(العلويون): بانياس، جبلة، حفه، القدموس، القرداحة، اللاذقية، مصياف، المشتى، أرواد، صافيتا، طرطوس، تل كلخ.

فمجموع المراكز ٤٥ في لبنان، و٤٠ في سورية، و١٢ في العلويين.